

كتاب حياة الرافي

تأليف الأستاذ محمد سعيد الغرياني

عرفت الأستاذ سعيد الغرياني من كتاب القصة القصيرة، الذين أجادوا فيها، وبرعوا فيه، فأسدوا خدمة جليلة للغة العربية؛ إذ جعلوها محبة لدى أبنائنا وبناتنا، وهم قوام الجيل الناشئ، وعدة المستقبل.

وعرفته مدرسا خيرا بأساليب الحوار، ماهرا في عرض مادته، وفي اختيار ما يناسب منها عقول الناشئين والناشئات.

وعرفته من كتاب المقالات في النقد الأدبي، الذين يدينون بمذهب، ويستمسكون به، ويناضلون عنه، ولو نالهم في سبيله ما نالهم من أذى.

وسمعتة محاضرا، واضح الأداء، قوي النبر، بأسر سامعية، ويخليهم ببيان الساهر، ولا يتركهم إلا حيث يريد.

وهو في كتابه «حياة الرافي» يكشف لنا عن ناحية جديدة فيه، وتلك هي براعته في كتابة السير وتراجم الرجال، فلقد قرأت كتابه من أوله إلى آخره على غير ما ألفت في قراءة الكتب، وانتهيت منه منذ عهد قريب، وإني لأجد في نفسي خينا إلى أن تعود إلى قراءته، فتستمتع بذلك الأسلوب البارع والفن الرفيع من فنون القول.

اتصل الأستاذ سعيد بالرافي، وتأكدت الصلة، فكان نجية وكاتم سره، وأخلص كل واحد منهما لصاحبه، وارتفعت الكلفة، وقدر سعيد أدب الرافي قدره، واطمأن الرافي إلى سعيد اطمئنان الصديق إلى الصديق، وكشف له عن دخيلة نفسه، فرأى خيرها وشرها، وقوتها وضعفها، وما اشتملت عليه من حب وبغض ونوازع مختلفة.

وكان سعيد شابا يقظا بعيد النظر، عني بدراسة الرافي دراسة شاملة، وكأنه قد تنبأ بأن القدر يعده لأن يقوم بهذه المهمة العظيمة، فكتب حياة الرافي على نحو لم يألفه الناس، فلم يصوره ملكا طاهرا، هبط من السماء إلى الأرض، ولم يجعله مثلا أعلى، جمع كل خلال الخير، وإنما صوره رجلا يدب على هذه الأرض؛ يحنو الضعيف، ويهيم بالجمال، ويحب الفكاكة

ومجلس الأنس ، ويرى في كل شيء من هذا الوجود موضوعا يتناوله بفكره وقلبه ، ولم تمنعه صداقته له أن يقول ما يعرف عنه من عيب ، فكان بذلك وفيا للحق ، آمينا على التاريخ .

قرأت فمضوا من أدب الرافعي ، فكانت تثقل على نفسي فلا أستسيغها ، ولا أرى في قراءتها متعة ، ولكن كتاب سعيد خلق في رغبة قوية في أن أقرأ « رسائل الأحزان » و « حديث القمر » و « أوراق الورد » وسواها مما أحدث الرافعي ، لأنه فسر نشوءها ، وكشف عن باعثها ، وأثار السيل فدراستها ، وليس يخدم حتى ميتا بأكثر مما خدم سعيد (المرحوم الرافعي) لقد حيب الناس في فنه حين فسر ، وبعثه حيا نابضا ، فيه كثير من ألوان الجمال وأخذ سعيد على الشعراء والكتاب أنهم لم يجتمعوا في حفل حاشد ، ليقوموا ببعض ماوجب للرافعي من حق على أدباء الجيل الحاضر ، ولكن سعيدا - وهو فرد - أدى هذا الواجب بأحسن الأداء ، فكان بذلك أمة وحده . على أني مع هذا أرجو من الأستاذ سعيد أن يفسح صدره كما عودني ، ليسمع مني بعض ما أخذت عليه ، فقد روى في الكتاب وقائع لا أرى المنطق يقبلها وليس عندي شك في أن الأستاذ أعرف الناس بهذا ، ولذلك كان يعتذر بأنه راوية ، ونحن نجله أن يرسل الكلام دون أن يحتكم فيه إلى عقله .

وهناك شيء آخر أخذته عليه هو مبالغته في تقدير أدب الرافعي ومنزله من أدب الجيل الحاضر ، فإن انصراف المتأدين عنه دليل على أنهم لا يجدون فيه اللون الذي يشدونه ، ولعل جهل الرافعي بالآداب الأجنبية واتجاهاتها في العصر الحاضر ، وما تعالجه من شئون ، وتلك العاهة التي ابتلاه الله بها منذ الصغر ، وما كان يشعر به من كبر وغرور ، وأداءه عملا واحدا في مكان واحد طول أيام حياته - كل أولئك جعلته في شبه عزلة ، فكان أدبه أشبه بفلاسفة أفلاطون أدبا خياليا ضعيف الصلة بالحياة الواسعة الصاخبة المضطربة ولا يسعني مع هذا إلا أن أقدم تهنئي للأستاذ سعيد على كتابه العظيم ، وأرجوه أن يمتعنا بمثله في القريب العاجل .

وفي الختام أنادي من أعماق القلب مع الأستاذ سعيد: «يرحم الله الرافعي!!»

برحم الله الرافعي !!

محمد علي مصطفى